أهميتها تنبع من تجذرها في الذات الوطنية..

الوحدة اليمنية من خطوط التماس إلى ترابط الإنسان والمكان وسط خارطة الوطن الواحد

الوحدة اليمنية إنجاز استراتيجي قومي على الصعُد السياسية والحضارية

إعداد/محمد محمد إبراهيم

مع مجموعة من (كبار متوسطي السن) حظينا بوقت قصير من النقاش الجاد في مقيل المناضل العميد/ محمد جحلان، مديرية مكيراس.. وكان النقاش يدور حول أوضاع المديرية بعد سنوات الوحدة، وبعد الحديث معهم خرجت راجلاً (أثناء زيارتي لها في ٢٠٠٨م) لمسافة طويلة -نوعاً ما- على الخط الأسفلتي باتجاه مدينة البيضاء، وعلى جانبي الخط شعرت وأنا أنظر إلى قرى ومنازل مديرية مكيراس بثقة الإنجاز الحقيقي الذي صار فخراً لكل يمني بل لكل عربي أصله من اليمن ، وهناك وبين قريتين عتيقتين كانت شرارة الفتنة رابضة بين فاصل يفرق خطي تماس كلما اقترب البشر منهما ، صاروا ضحايا قطبين متاضدين تفصلهما طبول الحرب ، وتهمة مستوردة في علب التفرقة والتمزيق التي صدرتها للشعوب العربية ترسانة المستعمر الأجنبي العسكرية والثقافية والفكرية، هذه التهمة تلصق بكل من اقترب من خط التماس مصدرة عليه حُكمين كلاهما مُرّ، إما جاسوس لصالح أحد الطرفين فيسحب إلى السجون أو التحقيق معه، أو خائن أفرغ جعبة الأسرار -الخطيرة حينها- لدى الطرف الآخر فعاد على تراجيح مشنقة تنتظر وطنيته وحياته معاً..

● أما عامل الزمن الذي يشهد على القرابة بين أسرتين فصلتهما سنوات التشطير لا يملك أن يغفر لأحد الأقارب من السفر إلى عدن أو إلى صنعاء لمتابعة مصلحة الجوازات ووزارتي الداخلية والخارجية في كلا الطرفين حينها لأخذ إذن لتجاوز بضعة أمتار للوصول إلى قريبه في المنزل المقابل لبيته ؟ فقط لأنه خلف خط دولي آخر- ولن يحصل على هذا الحق إلا في حال كانت الأوضاع السياسية مستقرة بين الطرفين وأحيانا يستغرق الوضع أشهراً حتى يحصل صاحب الحق على إذن الزيارة.. وهذا التعقيد ما شرحه لنا بعض الذين جلسنا معهم في مقيل المناضل العميد محمد جحلان مدير المديرية الذين شرح تفاصيل ومعاناة المواطن اليمني في المديرية كواحدة من المديريات الحدودية خلال سنوات البؤس التشطيرية.

فجر يوم الـ(٢٢) من مايو هو وحده الذي كسر حاجز المستحيل وحول خط التماس المكهرب بالعداوة والتفرقة إلى قلب ينبض في جسد الخارطة اليمنية وهناك في مكيراس كواحدة من مناطق خطوط التماس تشعر بلا موارية ماذا تعني الوحدة اليمنية على الصعيد الجغرافي والاجتماعي والأسري.. ومن خلال ملامح الساكنين النقية وأحاديثهم الصادقة تشعر أن الوحدة كانت حلماً فصارت واقعا وكان غيابها مأتماً في كل صباح وأضحى وجودها فرحاً لا يبارح القلوب.. ومهما بلغت الأزمات باليمن الموحد تشعر أن هذه المناطق بأبنائها الذين خبروا التشطير معاناةً هم أكثر من غيرهم يشعرون بمكانتها الحقيقية وخيرها الكبير كمكسب وطني وقومي .. وهذه أبرز ملامح البعد الاجتماعي للوحدة اليمنية المباركة، لكننا قبل الحديث عن الأهمية الثقافية والسياسية والاقتصادية للوحدة سنعرج على عوامل الرغبة المنطقية الداعية للوحدة اليمنية المباركة جغرافيا وأزلياً، مع إشارة لما كان يدور من جهود في الأشهر القليلة التي سبقت الوحدة المباركة.

عوامل الجغرافيا

يقول الدكتور/محمد توفيق محمد، أستاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب بجامعة تعز في إحدى أطروحاته المعنونة بـ(الوحدة اليمنية واقع جغرافي.. وهدف قومي) إن الوحدة اليمنية أمر واقع جغرافياً منذ القدم حتى وإن حدثت عمليات التشطير على فترات متباينة، فالأراضي اليمنية كتلة متجانسة طبيعياً وحضارياً يصعب الفصل في ما بينها بحدود سياسية مصطنعة، وأن عملية التشطير التي تمت ماهي إلا نتيجة لفعل كل من بريطانيا والأتراك للاستفادة من خيرات هذه البلاد، ولخلق الفتنة والصراعات بين الشعب الواحد تحت مبدأ فرق تسد.

مؤكداً أنه مهما حاول الاستعمار أو غيره من العملاء فرض أمر لا يتفق وجغرافية اليمن (التشطير)، فإن الجغرافيا بشقيها الطبيعي والبشري تأبى الرضوخ ولابد من يوم يصبح فيه التاريخ والحاضر لساناً ومرآة يعبرا ويعكسا جغرافية المكان وينطقا بمكنون الوحدة.

وتمثلت عوامل الرغبة في إنجاز الوحدة في أزمة النظامين في الشمال والجنوب حيث نشطت قوى المعارضة لكلا الطرفين ومثلت عنصر ضغط على النظامين مما حدا بهما إلى السعي لإنقاذ مشروع الوحدة الاندماجية للتغلب على المعارضة الداخلية، كذا سقوط الخيار العسكري، حيث ثبت لكلا النظامين أن الصراع العسكري لن يحسم إلا معركة لصالح أحد النظامين على حساب الآخر ومن ثم فإن الحل هو التوجه للوحدة، أيضاً دور القيادة السياسية إذ أظهر كل من الرئيس علي عبدالله صالح وعلي سالم البيض روحاً عالية من التفكير الوحدوي أمكن بفضلهما تحقيق ما يشبه المعجزة وهو إتمام وإنجاز الوحدة في وقت كان الكثيرون يراهنون على عدم إمكانية تحقيقها، ويمكن القول: إن ما أنجز خلال الخمسة أشهر التي سبقت إعلان الوحدة وتحديداً في ما بين ٣٠ نوفمبر ١٩٨٩م وحتى ٢٢ مايو ١٩٩٠م يفوق عشرات المرات ما تحقق خلال ثمانية عشر عاماً منذ اتفاقية القاهرة ١٩٧٢م.

وإذا كانت الجغرافيا بمعطياتها المختلفة خرساء لبعض الوقت إلا أن التاريخ والسياسة هما بمثابة لسانها فإذا كان صادقاً عم الاستقرار والعكس صحيح، وما حدث على مستوى الأراضي اليمنية في حالة التشطير هو أن الأحداث التاريخية كانت ضد الجغرافية- ضد التيار وضد الطبيعة- فلم تهنأ الدولتان شعباً وحكومة بالاستقرار وذاقتا كثيراً من ويلات الحروب منها على سبيل المثال لا الحصر حربي(١٩٧٢ - ١٩٧٩م).

وأتت الوحدة متناغمة مع طبيعة اليمن الجغرافية لا سيما جغرافيتها الطبيعية، التي لم تعرف التشطير البشري ولن تعرفه حيث لا تعترف هذه الظاهرات بالفصل إنما هي مناطق متصلة ومستمرة، وفي ما يلي بعض من الظاهرات الجغرافية التي تدعم ودعمت بدورها الوحدة. (١)

الأهمية الديموسياسية والاقتصادية

توضح خريطة الجمهورية اليمنية مظاهر السطح في الأراضي اليمنية، ويبدو من أول نظرة لهذه الخريطة أن من الجوانب الطبوغرافية (السهول والهضاب والجبال) يصعب تشطيرها إلى شطرين فالجبال تمتد من الشمال إلى الجنوب محاذية لساحل البحر الأحمر ثم تنحرف صوب الغرب لتحاذي بعضاً من أجزاء خليج عدن وهي بذلك في شكلها حرف «ل « المقلوب، أي أنها لا تعترف بالحدود البشرية والتاريخية الخطأ.

وإذا كان البعض سيشير إلى أن مظاهر السطح ظاهرات جامدة وساكنة ماذا لو مر بها خط حدودي وشطرها أو جزأها إلى عدة أقسام؟ فهذا أمر عادي بل من المعروف أن مظاهر السطح حدود فصل لا وصل، هنا سنقول: إذا كانت الحدود موازية للوحدات التضاريسية فنحن نتفق معكم ولكن في حالة الأراضي اليمنية فإن الحدود كانت تتعامد عليها.

ولنترك مظاهر السطح الجامد لننتقل إلى الأحواض المائية، تلك الظاهرة الأكثر أهمية في الأراضي اليمنية ذات الطبيعة الجافة سيتضح لنا من الخريطة أن الأمر لايختلف كثيراً في أن الحدود المصطنعة لم تراع طبيعة اتجاهات الأودية ومنابعها، وأن طبيعة هذه الأودية وأحواضها ترفض تلك الحدود التي تفصل بين مناطق منابعها ومناطق مصباها لاسيما وأن هذه الأودية متوسطة الأطوال وأن جريان الماء بها متقطع غالباً.

النسيج السكاني وخصائصه الديموغرافية والسياسية من بين أهم العوامل التي تساهم في قوة الدولة عدد سكانها وطبيعة انسجامهم العرقي والديني واللغوي ومشاعرهم القومية ونظراً للطبيعة القبلية في الأراضي اليمنية ستركز الورقة على دور القبائل في دعم الوحدة.

وعن التكوين القبلي فهو يعتبر من أهم التكوينات البنيوية للسكان التي قد تؤثر سلباً أو إيجاباً في الاستقرار السياسي ومن ثم التكامل القومي، وتعد القبيلة في اليمن أكبر وحدة قرابية وهي تتجزأ إلى أجزاء فرعية متعددة.

ومن المؤكد أن القبيلة في اليمن ذات تأثير فعال يصعب تجاهله سواء سياسياً أو اقتصادياً واجتماعياً لكونها جزءاً أساسياً من تكوين المجتمع وقد ساهمت هذه القبائل بدور أساسي في تحديد مصير البلاد كما شاركت في دعم الوحدة بشكل كبير على اعتبار أنها ستوحد الأهل ويصبح من السهل عملية التواصل بين أفرادها التي كان للتقسيم أثر في تشطيرهم.

لعب ظهور النفط في منطقتي شبوة ومأرب دوراً مؤثراً ودافعاً كبيراً نحو الوحدة بدلاً من الصراع كما هو متبع على كافة المستويات والأزمات الدولية المعروفة اتفاقية التنقيب المشترك ١٦ - ٤- ١٩٨٨ م والتي تم إبرامها في تعز.(٢)

اقتصادياً تتنوع ثروات قاع البحر الأحمر وباطنه في نطاق المنطقة الاقتصادية الخالصة للدول المطلة على البحر، إذ لا يزيد عرض البحر عن ٤٠٠ كم، ولذا فإن من حق هذه الدول(ومعظمها دول عربية) أن تكون لها السيادة الدائمة على موارد البحر الأحمر.

أما على الصعيد السياسي فالموقع الجغرافي للبحر الأحمر يلاصق الساحل الشرقي لأفريقيا، والساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية، ثم قناة السويس كبوابة للبحر المتوسط، وباب المندب كمدخل للمحيط الهندي ثم يأتي البترول وطرق نقله، واشتعال الصراعات في منطقة القرن الإفريقي (أرتيريا، أثيوبيا، السودان، الصومال، أثيوبيا) واحتمالات التوتر والقلق الكامنة تحت السطح في مجتمعات المنطقة، فضلاً عن الثروات الكامنة في قاع البحر وعلى سواحله، والتي قربت التكنولوجيا يوم استثمارها، كل ذلك جعل منطقة البحر الأحمر منطقة جذب استراتيجي(٣).

التعددية السياسية والديمقراطية

هذا بالنسبة للعلاقة القائمة بين الأرض والسياسة والاقتصاد والأهمية الاستراتيجية التي مثلتها الوحدة اليمنية على خارطة الأرض والإنسان والاقتصاد لكن هناك بعداً سياسياً آخر انعكس على التنمية يتمثل في وقف نزيف الصراع الدائر بين الجانبين واتجه الجميع بفعل الوحدة التي أنهت كل تلك الصراعات إلى العمل نحو بناء الوطن الواحد في كل مجلات الحياة التنموية .

سياسياً أيضاً شكلت الوحدة اليمنية أيضاً محطة استثنائية وفريدة لم يسبق وأن حدثت في أي بلد عربي أو إسلامي وهي التعددية السياسية والحزبية وحرية التعبير فكراً وممارسة، وشهدت اليمن محطات انتخابية عديدة شهد لها المجتمع الدولي.. واتجهت القوى السياسية الفاعلة نحو تحديث الصيغ الدستورية والقانونية للمشاركة السياسية في اليمن وصولاً إلى مشاركة الأحزاب والتنظيمات السياسية في الانتخابات البرلمانية الأولى للجمهورية اليمنية في ٢٧ إبريل ١٩٩٣م وما تلاها من مرحلة الائتلاف الحكومي الأول والنتائج التي والأزمة السياسية وأثرها السلبي على الحياة العامة في اليمن.. لتأتي بعدها مرحلة المؤسسات الدستورية الحديثة (كالأحزاب والتنظيمات السياسية ومنظمات المجتمع المدني) التي قطعت شوطاً متقدماً في عملية التحديث السياسي والاجتماعي من خلال استيعاب القوى التقليدية التي مازالت فاعلة في المجتمع اليمني المعاصر، ونستطيع القول بأن القوى التقليدية لم ترفض قيم التحديث الاجتماعي والسياسي بل طالبت به من خلال مختلف الفعاليات التي نفذتها القبائل اليمنية، وهنا ينبغي على تلك المؤسسات الدستورية أن تعمل على توظيف هذه الولاءات لتنمية الولاء الكلي لليمن خدمة للصالح العام، وهذا الاتجاه سيجعل كل تلك المؤسسات مقبولة ومرغوبة في أوساط الجماهير بشكل أكثر وأن تعتمد على العناصر الأكثر تأهيلا. (٤)

الأمن البحري محلياً وقومياً

تعتبر الوحدة اليمنية من أهم مصادر الاستقرار في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر لاسيما وأن على الجانب الآخر من المدخل تتعدد الأحداث والصراعات والحروب الأهلية وأيضاً الوجود المكثف لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية والغرب، ويكاد يكون ذلك الاستقرار مطلباً قومياً لأهمية هذه المنطقة الاستراتيجية بالنسبة للأمة العربية على اعتبار أن منطقة باب المندب بمثابة البؤرة التي تتركز عندها الأهمية القصوى لأمن جميع الأطراف المطلة على البحر الأحمر.

وتنبع الأهمية الاستراتيجية لمنطقة البحر الأحمر بشكل عام نتيجة لمجموعة من الحقائق القديمة، والمتغيرات الجديدة منها أن البحر الأحمر يربط بين قارات العالم القديمة وهو بموقعه هذا وكممر مائي يساهم في اختصار المسافات والوقت.

كما يمثل قناة وصل بين البحار المفتوحة في المحيط الأطلنطي والهندي عبر المتوسط ووظيفته هذه تزيد من أهميته الاستراتيجية سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية، البحر الأحمر هو الطريق الرئيسي الذي يمر من خلاله نفط الخليج العربي إلى الأسواق الاستهلاكية في أوروبا البحر الأحمر هو أحد الممرات الرئيسة للملاحة والتجارة الدولية بين أوروبا الغربية ودول آسيا.. كما أن البحر الأحمر له أهمية كبرى من ناحية الأمن القومي العربي وتحديداً أمن البلاد العربية المطلة عليه (٥).

البُعد الحضاري

بعد سنوات التشطير والصراعات السياسية كان ينتظر اليمن قدرٌ يستعيد المكانة الحضارية للأمة اليمنية بين الأمم وبعد نضالات وطنية خيرة بذلها فرقاء العمل السياسي ورموز الصفوة الاجتماعية والقبلية والفكرية في كلا